العينى ومنهجه فى الشواهد

الدكتور عبد الوهاب ربيع محمود

تدور هذه السطور حول علم من أعلام النحو فى القرن التاسع الهجرى هو « بدر الدين العينى » من خلال دراسته لكتاب « المعجم المائة » فى النحو الذى صنفه الشيخ الامام •• عبد القاهر الجرجانى • وكلا الرجلين قد كتب الله له الخلود بفضل ما خلفه من علم ينتفع به ، فمازالت مصنفاتهما تنير الطريق لطلاب العلم وباحثيه •

١ ـ التعريف بالعينى :(١)

هو قاضى القضاة . وشيخ الاسلام ، بدر الدين أبو محمد محمود بن احمد بن موسى بن أحمد بن الحسين بن يوسف بن محمود • اشتهر « بالعينى » تسمية الى « عين تاب » التى ولد بها ونشأ بين ربوعها ، وقد كان مولده فى السابع عشر من رمضان سنة اثنتين وستين وسبعمائة من الهجرة • على ما ذكره « ابن حجر » و « السخاوى » وكانت نشأته نشأة أبناء العلماء ، فقد كان والده « القاضى شهاب الدين احمد » الحلبى الأصل ـ بلى قضاء « عينتاب » فتلقى ابنه عليه باكورة معارفه ، وكذلك أخذ عن أكابر علماء بلده ، مما أظهر عبقريته ومقدرته العلمية وهو مازال فى أيام الشباب الأولى ، وأهله ذلك أن يلى قضاء « عين تاب » نيابة عن والده ، وأن يجيد القيام بمهام هذا المنصب مع أهميته وخطورته •

وله رحلات مشهورة فى سبيل طلب العلم ، فقد ارتحل الى حلب ، وبهنسا ،والى كختسا ، والى ملطية •

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد الرابع، مطبعة الأمانة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م

وفى أثناء رحلته الى الحج التقى فى « بيت المقدس » بعلامة الشرق : « علاء الدين بن أحمد بن محمد السيرامى » فاتصل به ، وصحبه ، ودامت الصحبة وبمعية شيخه « العلاء » قدم الى أرض مصر ، وظل ملازما لشيخه يأخذ عنه فى المدرسة البرقوقية التى كانت فيها اقامته ٠

٢ ـ ثقافته :

ان نظرة فى قائمة هذا التراث الواسع الذى خلفه « العينى » لتوقف الناظر على سعة الاطلاع والتبحر فى الدرس واجادة التصنيف ٠ فقد عاش الشيخ قرن الموسوعات أو دوائر المعارف الاسلامية ، فنهل من معينهـا الرقراق وأخـذ عن أكابر العلمـاء فى أيامه ـ وما أكثر شـيوخه فى الحديث والفقه ـ والكلام ـ وعلوم القـرآن ـ وعلوم العربية ، ولم يغفل صاحبنا ذكر شيوخه ، والكتب التى أخذها عنهم ٠ ولو حاولنا اسـتقصاء ما وقفنا عليه فى هذا الجانب لطال بنا حديث نحرص على ايجازه ٠

ومن مظاهر السعة والالمام بأطراف الثقـافات عند صاحبنا ، هـذه المصنفات فى التاريخ ـ بين مطول ومختصر (عقد الجمان فى تاريخ أهـل الزمان) فى خمسة وعشرين مجلدا ٠

(وسيرة الملك المؤيد المسمى بالسيف المهند)

(منحة السلوك فى شرح تحفة الملوك) وغيرها ٠

وفى الفقه ـ

(البناية فى شرح الهداية) م وغيره

فى الحديث :

(عمدة القارى شرح صحيح البخارى) م

ويهمنا هنا ثقافته اللغوية والنحوية ـ مصادرها ومظاهرها ٠

والذى لا شك فيه هو أن (العينى) من أعلام نحاه عصره • يشهد بذلك ما صنفه من كتب فى النحو شاعت وذاعت وهى من أهم مصـــادرنا اليوم وقد لا حظت اغضاء القوم عنه فلم يدرسوا مصنفاته بل نـــدر من يذكره بين النحاة ، مع أنه عاش عصر « الدمامينى ت ٨٣٧ » و « الشمنى ت ٨٧٢ » و « والـكافيجى ت ٨٧٩ » و « خالد الأزهرى ت ٩٠٥ » وهؤلاء كتب النحو والنحاة تحرص على ذكر آرائهم والترجمة لهم •

مع أن الرجـــل عرف للنحو قدره بين علوم آداب اللغة ، وعرف له رسالته فى ايضاح مقاصد علوم الشريعة فيقول وهو فى معرض الكلام عن حد علم الحديث ودورانه حول أقوال النبى وأفعاله وأحواله •

« أما أقواله فهو الكلام العربى ، فمن لم يعرف الكلام العربى بجهاته فهو بمعزل عن هذا العلم • وهى كونه ـ حقيقة ومجازا ـ وكناية وصريحا ـ وعاما وخاصا ـ ومطلقا ومقيدا ـ ومحذوفا ومضمرا ـ ومنطوقا ومفهوما ـ واقتضاء واشارة ـ وعبارة ودلالة ـ وتنبيها وايماء ـ ونحو ذلك مـع كونه على قانون العربية الذى بينه النحاة بتفاصـيله وعلى قواعد استعمال العرب وهو المعبر عنه بعلم اللغة •

وترك الرجل من مصنفات النحو •

ـ المقاصد النحوية ـ المعروف بالشواهد الكبرى تناول قبه الشيخ الأبيات التى اســتشهد بها شراح ألفية « ابن مالك » وهو مطبوع بهامش خزانة الأدب ـ للبغدادى ـ فى طبعته غير المحققة •

ـ فرائد القلائد فى مختصر شرح الشواهد ـ المعروف بالشـــواهد الصغرى •

وهو يذيل بعض طبعات حاشية الصبان على شرح الأشمونى للألفية • وقد فرغ من تصنيفه سنة ٨١٧ • ومنه نسخة خطية بالمكتبة الأزهرية فى ٨١ ورقة برقم (٥٦) ٣٩٤

- وسائل الفئة فى شرح العوامل المائة - للجرجانى - وهو محرر كلامى فى هذه العجالة (خ) ٠

هذا الى جانب : تعليقاته على شرح ابن الناظم للألفية ٠

وشرح مراح الأرواح - وحاشية على الجار بردى - وشرحين للتسهيل مطول ومختصر ٠ (لم نتمكن من الوقوف عليها حتى كتابة هذه السطور)

وهذا كله لا يمثل التراث النحوى « للعينى » حقيقة ٠ بل هناك منه كم ضخم فى تناول « العينى » لشرح مرويات البخارى من الاحـــاديث النبوية فى كتابه « عمدة القارى » فقد أطنب الرجل فى مســائل اللغة والنحو فى هذا الكتاب بشكل استلفت نظر قارئيه ، وبعـــد ذلك من محاسنه ، بالرغم مما رماه به تلاميذ معاصره « ابن حجر » ٠

بل وفى كتاباته التاريخية تراه ينتهز كل فرصة لكى يتناول مسألة لغوية أو تصريفية أو يذكر مصنفاتيهما ٠ وقد عاينت ذلك فى « السـيف المهند » فى سيرة الملك المؤيد ٠ يقول الشيخ :

« ثم المؤيد » اسم مفعول من (أيد) على وزن (فعل) من الأيد ، وهو القوة ، ومنه قوله تعالى (وداود ذا الأيد ٠٠) ٠٠٠ وفيه دلالة عـلى أنه مقوى على أعدائه ، فاذا كان هو (مؤيدا) بفتح الياء - فكذا هو (مؤيد) بكسر الياء ، يعنى بتؤيد شرائع النبى صـــلى الله عليه وســـلم ، ويقوى أحكام الدين ٠

ولما ورد ذكره (السـلطان) ذكر أن معناه الحجة - وســـاق قول « ابن دريد » سلطان كل شىء حدته وسطوته ، ومنه اشـــتقاق السلطان وسلطان الدم تبيعه ، وسلطان النار الهبا بها ٠٠

وقيل اشتقاقه من السليط وهو دهن الزيت لاضاءته وقيل من «سلط» بالضم ، وسلط سلاطة وسلوطة اذا غلب وقهر ومنه ســـلطنته على فلان

تسليطا ، أى جعلت له عليه قوة وقهرا • ويقال : رجل سليط : أى فصيح حديد اللسان ، وامرأة سليطة أى صخابة •

وقال ابن دريد : السليط للذكر مدح ، وللأنثى ذم ••• الخ •

ولما تحدث عن عضـــــو الدولة (فنا خسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه) ذكر فضله وحبه للعلماء وقال : (صنف له الشـــيخ أبو على الفارسى ـ كتاب الايضاح والتكملة فى النحو • كما أنه ذكر وصفا لمجالس العلماء خاصة مجلس (قطب الدين التحتانى) وكيف به مليئـــا بالأعيان والعلماء وذكر أنه تناول فى هذا المجلس مسـائل مشـــكلة من الكشاف والمفتاح ـ ونحوهما ـ وأجاب الكل بأحسن الجواب (٤) •

وما دمنا نتناول ثقافة الرجل فى صناعة النحو واللغة فنشير بايجاز الى مصادرها ، ولا أظن القارىء بحاجة الى اسهاب هنا فقد درس « العينى » جل مصنفات النحو المتداولة فى عصره • وعليك أيها القارىء الكريم أن تلقى نظرة على احدى صفحات الموسوعة الاسلامية الكبرى أعنى (عمـــلة القارى) وتحاول حصر ما يذكر الشيخ من مصـــادر ومراجع فسوف ترى ما يشعرك بأن الرجل هذا حاضر الذهن فى تناوله للمصدر كما أنه يحسن استخدامه •

فهو كثيرا ما ينقل عن الجوهرى فى صحاحه ، وصاحب العين والقزاز وابن سيده فى المحكم ، وابن الأثير ، وابن قتيبة وابن مالك ، والأنبارى ، وسيبويه ، ابن الاعرابى ، وصاحب المفتاح ، وغيرهم كثير •

وهو حين يذكر العالم قد يذكر مصنفه الذى ورد فيه هذا القـــول وربما أغفله •

ويمكن أن نعتبر من مصادر ثقافته ما اطلع عليه من شروح للبخارى

وغيره من كتب السنة ، وكتب علوم القـرآن ، وكتب السير والتراجم ٠ وقد ظهر أثر ذلك كله فى مصنفاته المتعددة المناحى والاتجاهات ٠

شخصيته المعتدة :

المتتبع لسيرة « العينى » والمطلع على آرائه العلمية ، يمكنه أن يقـول ان الرجل مع سعة ثقافته ، شأنه شأن غيره من المصنفين فى هذه المرحلة المتأخرة ، وبخاصة فى النحو ومسائله ، وينـدر أن نقف له على رأى مبتكر، أو قول انفرد به ٠

ومع هذا تراه يعتز برأيه ،فخورا بنفسه ، كثير التعريض بمعاصريه وقد عرف عنه الشغف بذلك ٠

وربما دفعه الى هذا السلوك ما كان يلقاه من جهامة معاصريه الذين كانوا يغبطونه بل يحسدونه على مكانته العلمية ، ومناصبه الدنيوية فولد هذا عنده ذلك الشعور تجاه الجميع ، ينجلى ذلك فى قوله :

(٠٠٠ فالناس فيما تعبت فيه الأرواح ، وهزلت فيه الأشـباح على قسمين متباينين : قسم هم حسدة ليس عندهم الا جهـــل محض ، وطعن وقدح وعض ، لكونهم بمعزل عن انتزاع أبكار المعانى ، وعن تفتيق مارتق من المبانى ، فالمعانى عندهم تحت الالفاظ مستورة ٠٠) أ هـ ٠

ويصور احساسه نحو الناس أيضا قوله : (٠٠ ثم انى أجبتهم بأن من يتصدى للتصنيف ، بجعل نفسه هدفا للتعسيف ويتحدث فيه بما ليس فيه ، وينبذ كلامه بما فيه التقبيح والتشويه ، فقالوا ما أنت بأول من عورض، ولا بأول من كلامه نوقض ، فان هذا داء قديم ، وليس منها سـالم الا وهو سـليم) ٠

بهذه الروح عامل العينى الناس علماءهم وخلافهم • ويصـــور هذا الاعتزاز قوله عند ذكره للدواعى شرحه للبخارى :

(•• اظهار ما منحنى الله من فضله الغزير ، واقداره اياى على أخذ شىء من علمه الكثـير ، والشـــكر مما يزيد النعمة ومن الشـــكر اظهار العلم للأمة) •

وقد دفعه هذا الشعور الى أن يتكرر عنده كثيرا قوله : (•• ولم أجد من الشراح قديما وحديثا ، شفى العليل هنا ، ولا أروى الغليل ••) •

أو (ولم أر احدا •• حرر هذا الموضع كما ينبغى ، ولا سيما من يدعى فى هذا الفن بدعاوى عريضة ، وبمقدمات ليس لها نتائج) •

وسيطر عليه هذا الشعور مع أغلب من ذكرهم فى مصنفاته وان كان « ابن حجر » قد حاز قصب السـبق فى المؤاخذات عنـد « العينى » فهو المقصود غالبا بقول العينى (بعض الشراح) (بعضهم) وهو المقصود فى أغلب معاريض العينى كان يقول : (هذا قول من لم يشم رائحة العربية) أو يقول (على ما يراه من لا معرفة له بالتصريف) •

وقد ذيل رأى الزمخشرى فى معنى (لن) الناصبة بقوله (ورد بأنه دعوى بلا دليل) •

ورد رأى (ابن مالك) فى تحليله للأسـلوب (يلتوى فيها جذعا) بقوله : (قلت دعواه ببطلان الحذف غير سديدة ، لأن دليله لم يساعده ••)

وشارك « ابن حجر » فى هذه المعاملة من شيخنا رجل يسمى (ابن شعبان) وكان قد عين فى وظيفة « الحسبة » بعد أن عزل « العينى » عنها وكان ذلك فى سنة ٨١٧ هـ فقال العينى مؤرخا لهذه الحادثة •

وفى .... عزل صاحب هذه السيرة ، وولى مكانه من لا يصلح أن يذكر فى التاريخ ٠

أى قسوة هذه التى يعامل بها العينى معاصريه ، ومن سبقهم من العلماء مهما كانت معاملة الناس له ، وشعورهم نحوه ٠

ومن عجب أن يعامل « العينى » من الخلف بما عامله به السلف واقرأ ان شئت مواضع فى خزانة الأدب تعرض فيها « البغدادى » لكلام العينى ـ خذ على سبيل المثال هذه المواضع فى (جـ ٣ بولاق) ص ١٨ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ١٢٢ ، ١٥٣ ٠

وفى أغلب هذه المواضع يرد « البغدادى » قول « العينى » وينبعه بعبارة تشعر بعدم الرضى عن قوله ، ومن أفظع هذه المتابعات قول البغدادى بعد أن ذكر تفسير العينى (للبيض) فى قول الشاعر :

ونطعنهم حيث الكلى بعد ضربهم ببيض المواضى حيث لى العمائم

ان (البيض) بفتح الباء الحديد ، والمواضى ـ السيوف ٠ أراد ضربهم بحديد السيوف فى رؤوسهم ٠ ويجوز كسر الباء ٠

يقول البغدادى (ولا ينبغى لمثله أن يسود وجه الورق الأبيض بهذه الترهات) ٠

ولن أطيل هنا ، وسوف نقدم بمشيئة الله دراسة مستقلة فى هذا الموضوع ٠ نعرض فيه لموقفى الرجلين من الشواهد وتحليلها ٠

العينى وعلوم العربية :

نستطيع القول بأن شيخنا من ذوى الالمام الواسع بهذه العلوم فله

فى النحو والتصريف مصنفات ، ومتناولات وسوف نفصل القول عنه نحويا فى دراستنا لشرحه لعوامل الجرجانى ٠

ويهمنا هنا أن يعرف القارىء أن للرجل لمحات بلاغية ، اكتسبها من الكتب التى درسها على شيوخه ، كالمفتاح ، وشروح التلخيص و « التبيان فى المعانى والبيان » لصاحب الكشف على الكشاف العلامة « الطيبى » ٠

وتتجلى ثقافته البلاغية فى شرحه للبخارى ، فهد بعد أن ينهى الكلام عن الحديث نحويا وتصريفيا يتبع ذلك ، بذكره مسائل بلاغية يستوفى فيها الكلام عن (المعانى ـ البيان ـ والبديع) تحس من خلال مناقشاته أنك أمام عالم متخصص فى هذه العلوم ، ومسائله هذه تحت الدراسة الآن فى رسالة جامعية فى مرحلة الدكتوراه ـ بكلية اللغة العربية بالقاهرة ٠

وثقافته البلاغية كانت صاحبته فى تناوله النحوى ، فهو يذكر مصطلحات البلاغيين فى كلامه عن البسملة ، ويرى أن قوله تعالى (الرحمن الرحيم) من باب التتميم والتكميل لا القصد ولما أراد الكلام عن (ان وأخواتها) فى شرحه للعوامل قال : (« ان » وهى للتحقيق ٠٠٠ فان قلت ما معنى التحقيق فى (ان) قلت : أن يحقق مضمون الجملة ، ويثبت قدمها فى الصدق ، كما ترى ذلك فى قولك « زيد كاتب » و « ان زيدا كاتب » ثم زيادة المؤكد بحسب اعتبار المقام ، باعتبار حال المخاطب ، فاذا كان المخاطب خالى الذهن غير منكر يكفى فيه أن تقول : « زيد كاتب » ثم تؤكده بحسب اعتبار المقام ، واعتبار حال المخاطب تقول : ان زيدا كاتب ، ان زيدا لكاتب ، والله ان زيدا كاتب ، والله ان زيدا لكاتب) أ هـ ٠

وما فعله العينى فى هذه المسألة محل دراسة وبخاصة عند أصحاب المناهج الحديثة فى الدراسات اللغوية ، وليس هذا مجال مناقشتها ٠

كما أن لشيخنا لمحات فى دراسة الصوت اللغوى ظهرت فى كلامه عن

الحروف وصفاتها الجر والهمس ، والشدة والرخاوة ، والتفخيم والترقيق. يقول الشيخ : (وجرس الحرف : نغمة الصوت ، والحروف الثلاثة لا جرس لها ، أعنى الواو ـ الياء ـ الألف اللينة ، وسائر الحروف مجروسة) .

ولما تناول الفصم ـ بالفاء ، والقصم ـ بالقاف . قال : « للرخاوة فى الأول قيل الفصم ـ القطع بلا ابانة . وللشدة فى الثانى ، قيل : القصم القطع بابانة .

ومن لمحاته الذكية فى هذا الجانب تناوله لكلمة « القلب » وهى من المشترك اللفظى يقصد به المصدر للفعل ـ قلب ـ ويقصد به « العضو من جسم الانسان ، تراه ينقل قول القرطبى : (ثم ان العرب لما نقلته لهذا العضو التزمت فيه التفخيم فى قافه للفرق بينه وبين أصله) .

هذه أمثلة قصدت بها ايضاح بعض جوانب تلك الشخصية العلمية التى قال عنها ابو المحاسن فى المنهل الصافى (كان بارعا فى عدة علوم ، مفتيا كثير الاطلاع ، واسع الباع فى المعقول والمنقول ، لا يستنقصه الا متغرض قل أن يذكر علم الا وله فيه مشاركة جيدة ..) .

وجل من ترجم لشيخنا وصفه بالامامة ، وسعة العلم ، وأنه كان آخر مرجع لحل المشكلات وكشف المعضلات ..

أسلوبه :

لقد عايشت « العينى » كاتبا فى عمدة القارى ، والسيف المهند ، وشرحه لعوامل الجرجانى وشرحيه لشواهد شراح الألفية .

ومن خلال قراءاتى للرجل ، أمكننى القول بانه ذو أسلوب أدبى راق، وان كان قد سابر الاتجاه العام للكتابات فى عصره ، من ميل الى المحسنات

اللفظية بشتى صورها من جناس ، وسجع واقتباس ، وشاعت بين سطوره الصور البيانية من تشـــبيهات واستعارات وللكنـــاية عنده والتعريض مكانة ملموسة ٠

هذه أمور تحسها عندما تقرأ مقدمة (عمدة القارى) وكتاب « السيف المهند » ومقدمة كتبه المشار اليها بصفة عامة ، وهاك نموذج لكتابته العلمية المتأدبة تناولته من كتاب « السيف المهند » دليلا على ما ذكرته من ســمات عامة لأسلوبه :

جاء فى حوادث سنة ٨١٧ انهزام عسكر السلطان ، وخروج السلطان بنفسه ليقاتل معه وانتهت المعركة بانتصار السلطان وجنده ٠ يقـــول العينى :

(وكان الأمر فى هذا أن هؤلاء الشرذمة ، لما حصل عليهم ما حصل ، جاء الصريخ لمولانا الســـلطان ، وهو على أراضى (سرمين) فعند ذلك ، نهض نهوض الأســـد الكاسر الجانى . وأسرع سرعـــة الصحيح القوادم والخوافى ، فنزل على الخـارجين المتمردين الطريدين المتشردين ، نزول السباع على فرائسها المفروسة ، وجعلهم حصائد مدكوسة منسوسة ، فلم يشعر الا وهم قبضته الشريفة وســـطوته المنيفة ، ولم ينفلت من أعيانهم أحد ، وسبق كل واحد فى جيده حبل من مسد » ٠

وهذه الطريقة لم تلازمه فى مصنفاته الأخرى بل جاءت عبارته عادية فى تناوله للمسائل العلمية ، خالية تماما من المحسنات كما هو الشأن فى شرحه للعوامل أو شرحه للبخارى أو تناوله للشواهد ٠

شعـــره :

كان الشيخ يقول الشعر ، ولكنه فى جملته من قبيل نظم الفقهاء يقول

السخاوى : « وله نظم كثير فيه المقبول وغيره » وتحامل عليه السيوطى فى (البغية) فقال « وأما نظمه فمنحط للغاية ، وربما يأتى به بلا وزن » .

وأحس « ابن حجر » هذا الضعف فى شعره فتناوله تحت عنوان :

قذى العين من شعر غراب البين »

ولبيت شيخنا جود ما يقوله كما جرد ما رواه ، فقد كان رحمه الله يستجيد الشعر ويذكر منه ما يروقه كلما واتته الفرصة ، ولا عجب فى هذا فهو رجل الشواهد الشعرية بدرسها رواية ودراية ، ويضمنها كلامه وبخاصة ما يحمل حكمة أو مثلا كقول الشاعر :

اذالم يكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصبح مسفر

أو قوله :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر

من مظاهر احساسه الأدبى وحبه للشعر أنه عندما تناول سيرة « عضد الدولة » يحرص على أن يذكر موقف « المتنبى » فى بلاطه وانشاده الهائية التى فيها :

وقد رأيت الملوك قاطبة
وسرت حتى أتيت مولاها
ومن مناياهم براحته
يأمرها فيهم وناهيا

بل ويذكر من شعر « عضد الدولة » نفسه ، مقدما له بقوله

(فمن ذلك أبيات من قصيدته التى فيها البيت الذى لم يفلح بعده وهى:

ليس شرب الراح الا فى مطر
وغناء من جوار فى السحر

غانيـات سـانبات للمنهى
ناغمات فى تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس فى مطلعهـا
ساقيات الراح من فاق البشر
عضـد الدولة وبانى ركنهـا
ملك الأملاك غـلاب القـدر

السنت معى أن الرجل شاعر بالقوة ، وان لم يتمكن من جودة النظم

وبعد هذه السطور التى قصدت بهـا التعريف بالعينى وتجليه بعض جوانب شخصيته بجدر بى أن أنتقل الى « العينى » النحوى من خلال تناوله « لعوامل الجرجانى » هـذا الكتاب الذى شـغل الأذهان حقبة ليسـت بالقصيرة ، فتناوله العديد بالشرح والتفسير والاعراب والترجمة والنظم · وما كان هذا الا لأهميته . فقضية العامل النحوى كانت ولا تزال من أخطر القضايا فى نحونا العربى ·

وقد كان لشيخنا العينى دوره حول هذا الكتاب ، فقد تناوله بالشرح وهو ما سنتناوله بالدرس والتحقيق فى عجالتنا هذه ·

شرحه للعوامل :

يذكر بعض أصحاب لطبقات هـذا الكتـاب باسـم (شرح العوامل الجرجانية) فقد ذكره ـ السخاوى ـ (فى الضـوء اللامع ١٠/١٣٥) ـ كما ذكره صاحب (شذرات الذهب ٧\٢٨٧) وأشار اليه بروكلمان ضمن شروح العوامل للجرجانى ، ولم يشر الى مظانه فى مكتبـات مصر ، ومن الأماكن التى ذكرها لوجود هذا الشرح ـ مكتبة الجزائر ع ٠٠ . وأهمل ذكره « السيوطى » فى (بغية الوعاة) « وعمر كحاله » فى (معجم المؤلفين) « والزركلى » فى (الأعلام) (١٤) ·

ولما وقفت على هذا الشرح للعوامل فى المكتبة الأزهرية مخطوطا برقم ٤٢٦٣٧/٣٣٠ ، والموجود منه نسخة واحدة ، أعدت التنقيب مرات ومرات آملا العثور على نظيرة لها ، تقوى من نسبتها الى صاحبها ، ولكنى لم أوفق فى ذلك ، حتى كتابة هذه السطور ٠

ويبدوا أن صغر حجم هذا الشرح ، واهمال بعضهم ذكره ضمن شروح العوامل قد أحاطه بشىء من النسـيان ، وان ذكر يكون ذكره غفلا عن أى تعليق عليه ، كما فعل محقق شرح العوامل للعجمى المسمى (الغيث الهائل) فقد جاء فى قائمة شروح العوامل ـ (شرح بدر الدين الحنفى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ) (١٥) ولم يتبع ذلك بشىء ، والبدراوى زهران ـ تحدث عن العوامل الجرجانية وترجماتها ونظمها وشروحها ، وكان حظ « العينى وشرحه » منه النسيان (١٦) ٠

النسخة التى اعتمدت عليها :

ذكرت آنفا أنى لم أعثر الا على نسخة واحدة من هذا الشرح ، وهى بخط نسخ معتاد ، تقع فى احدى عشرة ورقة مسطرتها ٢٥ سـ طرا ، ومتوسط كلمات السطر ١٧ كلمة ٠ وعنوانها :

(كتاب وسائل الفئة ، فى شرح العوامل المائة)

(للعلامة محمود بن أحمد العينى ، رحمه الله آمين)

وعليها عدة تمليكات بعضها واضح للقارىء ، وبعضها مطموس بطريقة توحى أنه طمس مقصود ٠ وبجوار احدى هذه التمليكات قول الكاتب تحريرا فى ٢١ لربيع الأول سنة ١٢٩٥ ٠

وبها مشها تصويبات املائية بخط الناسخ ، مذيلة بقوله (صح) ٠

توثيق نسبة هذا الشرح للعينى : ـ

لما لم أظفر بنسخة أخرى رأتينى مضطرا الى اللجوء فى توثيق هـذه النسخة الى أمور أخرى • بعد الاطمئنان الى ماذكره أصحاب كتب الطبقات• وقد تيقنت هذه النسبة لأمور منها : ـ

مقدمة المخطوطة فقد جاء فيها :

(فان العبـد الفقير الى رحمة ربه الغنى ، أبا محمد محمود بن أحمد العينى عامله ربه بلطفه الجلى والخفى يقول ••) •

وفى مقدمة الشواهد الكبرى يقول (فان العبد الفقير الى ربه الغنى أبا محمـد محمود بن أحمـد العينى ، عامله ربه ـ ووالديه ـ بلطفه الجلى والخفى يقول •••) •

وورد الدعاء نفسه فى مقدمة (عمدة القارى) فقد قال فيها :

(•• فان عانى رحمة ربه الغنى أبا محمد محمود بن أحمد العينى ـ عامله ربه ووالديه بلطفه الخفى ، يقول •••) • وهـذا بنصه فى مقدمة « السيف المهند » • وبالمقابلة ربما اتحدت الألفاظ . ومعانيها ، اللهم الا اسقاط كلمة ـ ووالديه ـ من مقدمة المخطوط . وقد يكون هذا الاسقاط من سهو الناسخ •

وشىء آخر قوى عندى هذه النسبة . وهو أنه بمراجعة المسائل النحوية التى تناولها « العينى » فى شرحه هـذا ، ومقارنتها بما ذكره فى « عمدة القارى » أمكن الوقوف على التقارب بين النصين • من ذلك ـ اقتران خبر «عسى» بأن ـ وتجرده منها مع « كاد » ـ يقول العينى فى شرحه للعوامل :

(٠٠٠ وانما ثبت (أن) مع « عسى » وحذف مع (كاد) لأن « كاد » أبلغ فى تقريب الشىء من الحال ، ألا يرى أنك اذا قلت : « كادت الشمس تغرب » كان المعنى قرب غروبها جـــدا ، « وعسى » أذهب فى الدلالة على الاستقبال ، ألا ترى يقول : عسى الله أن يدخلنى الجنه ٠٠ ★ ولم يكن هذا شديد القرب من الحال ، فلما كان الأمر على هذا حذف علم الاستقبال مع « كاد » وأثبت مع (عسى) ٠٠ هـذا بنصه فى (« عمدة القارىء » ٩١٢) يقول العينى (٠٠ وأثبت مع « عسى » لأن « كاد » ابلغ فى تقريب الشىء من الحال ٠٠ الخ) ٠

ومن التلافى بين المصنفين ـ كلام العينى عن (ر ب) و (لن) فيهما ومما يقوى هذه النسبة أيضا المنهج النحوى الغالب عند المؤلف فهو يميل الى جانب البصريين فى كليهما ٠

منهج العينى فى شرحه للعوامل :

أول ما يستلفت نظر قارىء هذا الشرح ٠ هو الايجاز والاختصار ، غير المخل ، وهذا المنحى فى التصنيف ، سمة م ســمات المتمكنين ، ومن دوافقه ، التيسير على الطالبين ، وسهولة التناول من الدارسين ، وكم من مطول اختصر من أجل هذا الغرض ويبدو أن شيخنا كن من المؤيدين لهذا الاتجاه ، فقد ذكروا له ـ كتبا ـ ملخصات لها ، فى عدة فنون ٠ وهـذه احدى فضائل العينى التى انفرد بهـــا عن غيره من شراح العوامل بعد أن أطلعنا على شروحهم ، فهو لا يسهتطرد فى الموضوع بما ينسيك أوله ولم يشغل القارىء ـ بأعاريب ومسائل نحوية لها مظانها من قولهم الاعراب التقديرى والمحلى ٠٠ الخ كما أنه لم يتعرض لغير العوامل وعلى النقيض من ذلك فقد ضخم « العجمى » شرحه يمثل هذه الأمور وتخفف منها مع اضافة

★ هكذا بالأصل والصواب (وان يكن ٠٠) وفى عمدة القارىء كذلك

غيرها « الشيخ خالد » وتوسط « القطانى » فى شرحه ، وهذا التفاوت يرجع عـدى الى النفاقة العـــامة للمؤلف ، والغرض الذى من أجله كتب مؤلفه «فالقطانى» كتب شرحه لأبناء طائفة الملابوية بخاصة المبتدئين منهم والعجمى ـ كتب شرحه للشاب الصالح (سراج الدين عمر) وهكذا وسمة الموضوعية هذه واضحة عند شيخنا « العينى » فى كل مسائله ولذا تراه حين يحس أن المسألة فيها مناقشات للنحويين ستدفع به الى الخروج عن منهجه يقول : ـ (... وفيها أبحاث ليس هذا بموضعها) أو يقول : (وفيه أبحاث كثيرة لا يحتملها هذا المختصر) وحينما يتكلم عن (الى) وكون (حتى) بمعناها يقول : ـ (وحتى فى معناها ولكنهـا تفارقها من وجوه كثيرة ، وقد عرفت فى مواضعها) (١٧)

وهذا ما اتبعه مع شواهده الشعرية ، وهو رجلها تراه لا يستطرد مع الشاهد شارحا بل يكتفى بذكره أو بذكر موطنه كما ستوضح ذلك .

أثر وظيفته فى تصنيفه : ـ

ذكر المترجمون أن شيخنا . دارت وظائفه العامة بين القضاء والحسبة ، ونظارة الأحباس ، وهذه الوظائف من شأنها أن تجعل صاحبها ذا عقلية منطقية ، فكل حكم له مسببات أو حيثيات ونتائج ، ويبدو صاحبنا ذا عقلية رياضية تجيد الجمع والاضافة والمحاسبة ، وأقول أن تأثر النحو بالمنطق والعلاقة بينهما تهمة قديمة بقدمهما ، وها هو « العينى » النحوى يجمع بينهما ، يقول « العينى » فى تأريخه لسيرة الملك المؤيد (... وهؤلاء موصوفون بهذه السعادات ، لأن كلا منهم تاسع ، وكل تاســع موصوف بهذه الصفات ، فمولانا السلطان المؤيد أيضا تاسع ، فهو أيضا موصوف بهذه الصفات ، وهذا بالاستقراء ، وهو يفيد اليقين غالبا لأن الاستقراء عبارة عن اثبات حكم كلى لثبوته فى أكثر الجزئيات ، وهو انما نام ـ ان علم حصر الجزئيات ، وهو الذى يسمى القياس المقسم ، وهو يفيد اليقين ،

على ما صرح به فى موضعه واما غير تام . ان لم يعلم حصر الجزئيات ، على ما عرف فى موضعه وقياسنا ايضا برهان ، لأن مقدماته يقينية ، لأن ما ذكر علم بالتواتر من أهل النقل ٠٠) اهـ (١٨) ٠

بمثل هذه العقلية الحسابية المنطقية تناول «العينى» عوامل الجرجانى فما أن ينتقل من نوع الى آخر حتى يقوم بعملية حسابية يقول :

(٠٠ فالعوامل السماعية أحد وتسعون عاملا ، والقياسية ٠٠ سبعة عوامل فصار الجمع ثمانية وتسعين ، وبقى عدوان وهو قوله (المعنوية) عددان ، ٠٠٠ فصار الجميع مائة ، لأنك اذا ضممت الاثنين على السبعة يصير تسعة ، واذا ضممت التسعة على أحد وتسعين يصير مائة بالضرورة)

وفى أثناء شرحه تتكرر هذه الحسبة (وقد عرفت أن العوامل السماعيه أحد وتسعون ، وقد ذكر منها سبعة عشر ، والآن نذكر ستة أخرى فيصير المجموع ثلاثة عشرين) (٢٠) ٠

وهذا الى أن يقول : (فهذه مائة عامل اى جملة ما ذكرنا من العوامل اللفظية والمعنوية والقياسية والسماعية مائة عامل التى وعد بذكرها فى أول الكتاب وقد انجز بذلك ٠٠٠) (٢١) ٠

ألست معى أنه متأثر هنا بعقلية المحتسب القيم على امور الناس المؤاخذ لمن خرج على القانون ، ومن مظاهر ذلك تجده أنك تراه يقسم الكلمات فيقول (اعلم أن الكلمات تنقسم بحسب القسمة العقلية الى اربعة أقسام ٠٠٠)(٢٢) ٠

مذهبه النحوى « كما يصوره شرحه للعوامل » :

هذا العنوان ليس محل رضى عندى ، ولكن أصحاب التراجم والسير

يحرص كل منهم أن يذكر مكان صاحبه من المعترك النحوى ، قاصدين بذلك الميل الى جانب احدى الاتجاهات فى الدرس - أعنى ما يسمى بالمدارس النحوية ، واذا كانت الأصول عند الجميع واحدة - سماع وقياس - فلا خلاف بين النحاة ، وانما هو اختلاف فى تطبيق هذين الأصلين ، توسعا ، وتضيقا ٠

وبمراجعة شرح « العينى » للعوامل ، يمكنى أن أقول انه كغيره من متأخرى النحاه ، يختار الاتجاه الذى يخدم قضية - بصريا كان أو كوفيا ٠٠ مع ميل الى الأخذ فى الخلافيات الى جانب البصريين ٠ من ذلك : -

(من) حرف جر معناها ابتداء الغاية ،

وقصرها البصريون على الغاية المكانية ٠ ويظهر من تمثيل العينى الأخذ بهذا القول ٠ كما اختار القول بعدم زيادتها فى الاثبات - وهو رأى سيبويه ٠

الاعراب : يراه البصريون أصلا فى الأسماء والفعل المضارع ملحق به والكوفيون على أن الاعراب أصل فيهما ٠

واختار العينى قول البصريين ٠

اسم الفاعل (المجرد من ال) يعمل فعله عند البصريين اذا كان بمعنى الحال والاستقبال بشروط معروفه وهى اعتماده على استفهام أو نفى ٠٠ الخ

والكوفيون يرون اعماله مطلقا

يرى العينى رأى البصريين يقول (ويعمل عمل فعله اذا أريد به الحال والاستقبال دون الماضى ٠٠ وشرط عمله أن يعتمد على أحد الأشياء الستة ٠٠ الخ) ٠

من مسائل الخلاف اسمية (نعم وبئس) وفعليتهما ـ اختار «العينى» فعليتهما كما هو رأى البصريين قال (واعلم أن نعم وبئس فعلان ماضيان عند الجمهور ، وعند الفراء هما اسمان والأول الأصح) (٢٣) ٠

والقارىء لشرحه سيقف على مثل هذه الأمور بنفسه ، فلن نطيل القول هنا بقى أن أقول : ان هـــذا المصنف مع صغر حجمه ، لا يقل فى مادته العلمية من أى مطول فى النحو وهكذا أراد له مؤلفه حين قال :

(قد سألنى من لا يسعنى رده ، ولا يوافقنى صده ، أن أشرح العوامل المائة التى لخصها الامام الخبير المدقق الشـــيخ عبد القاهر الجرجانى ، تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، فأجبته الى سؤاله ، ملتمسا فى ذلك من خالص دعائه ، نشرحهـا بعون الله ، بحيث يغنى النـاظر فيه عن بعض المطولات ، ويوقفه على مسائل ونكات ٠٠) (٢٤) ٠

موقفه من العلل النحوية

التعليل للأحكام النحوية نشأ مع النحو ذاته ، يقول الخليل « ان العرب نطقت على ســجيتها وطباعها ، وعرفت مواقع كلامهـا ، وقام فى عقولها علله ، وان لم ينقل ذلك عنها ، واعتللت أنا بما عندى أنه علة لما عللته منه ، فان أكن أصبت العلة ، فهو الذى التمست ٠٠ فان سنح لغيرى علة لما عللته من النحو هى أليق ممـا ذكرته للمعلول فليأت بهـا ٠٠ » (الايضاح ٦١ ـ ٦٢) ٠

وهناك مؤلفات لبيان ذلك ٠

وصاحبى لم يهمل التعليل عقب ما ذكره من أحكام مع أن حجم كتابه قد لا يحتملها ، وها أنذا أسوق بعض علله وان كان فيها مقلدا لمن سبقه فى قول الشاعر (غدت من عليه بعد ما تم ظمؤها ٠

يعلل لاستعمال (على) هنا اسما بدخول الجار عليها يقول : (اذ لو كان حرفا لما دخله الجار) ٠

وفى ذكر الفرق بين أحرف القسم يقول : « ثم الفرق بين هذه الأحرف الثلاثه أن الباء لأصالتها يجوز اظهار الفعل معها ، ويجوز دخولها على المظهر والمضمر نحو « بالله وبه لأعبدنه » والواو تدخل على المظهر فقط لكونها فرعا على الباء ، والتاء لا تدخل الا على واحد وهو «الله» لكونها فرع الفرع »٠

ذكر من الجوازم (لام الأمر) وحركتها الكسرة ، وعلل لذلك بقوله : (وانما كسرت ، ومن حق الحروف الواردة على هجاء واحد أن تفتح ، فرقا بينها ، وبين لام التوكيد التى تدخل المضارع نحو ان زيدا ليضرب » ٠

وذكر علة بناء (كم) الاستفهامية وهى كونها تتضمن معنى الحرف ٠ هذه أمور قصدت بهـا التمثيل لتعليلاته فقط ٠ وسوف تدرس فى مكانها عند تحقيق المخطوط ٠

شواهده :

الشاهد النحوى له قيمته بين مسطور كتبه ، ومع أن لشيخنا مصنفين كبيرين فى درس الشواهد الشعرية ، الا أنه هنا كان مقلا منها ، يذكر البيت بلا تعليق أو يذكر شطره محل الاستشهاد ٠ وهذا ميل منه الى الاختصار الذى أخذ به نفسه ٠

كذلك كان مقلا من الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وقد جاء الكتاب خلوا من شواهد الحديث فى مسائل النحو ، وان ذكر فى المقدمة حديثا واحدا هو قوله صلى الله عليه وسلم (كل أمر ذى بال لا يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع) وذكر من خرجه ٠٠